القصص

قصة مصرية

الشيخ عبد الباسط يتزوج ...

للأستاذ محمد على غريب

بين الأزهر وبين القرية ، يولد طالب العلم كل يوم مرة على تجارب لم يشهدها وحياة لم يألفها ، فى تلك المدينة التى يختنق صوت المؤذن فيها بصيحات المربدين الفجار ، والتى لو بعث فيها اليوم منشئها الأول جوهر الصقلى لما وجد فيها مكاناً يأوى اليه ، ولآثر عليها منادمة منكر ونكير . . .

ويوم غادر الشيخ عبد الباسط محمد حسين أبو جبل قريته الصغيرة لينتسب الى الأزهر ، كان أكثر أهله فى وداعه ، وقبيل أن يعلن القطار ضجره من الانتظار بصفيره المزعج ، انتحى به والده ناحية منعزلة وأوصاه بالصلاة والمذاكرة وطاعة شيوخه واحتقار ملذات الدنيا الفانية

ثم دس الوالد فى يد ولده خطاباً علت غلافه بصمات أصابعه المغمورة بالتراب ، وطلب منه أن يقدمه الى سيد القرية فى القاهرة وهو رجل من الأثرياء علك أكثر أرض هذه البقعة وينظر اليه الأهلون كانسان لم يخلقوا على طرازه ، فلا بدع أن يتخذوا منه السيد والمولى ، وأن يخشوا غضبه كما يخشى العابد غضب الآله

وحل الشيخ عبد الباسط فى غرفة مظلمة فى حى الباطنية بالقرب من الأزهر ، وحل معه فيها خمسة من الطلاب ومجموعة من الهوام والحشرات كانت تشارك أهل هذا الكهف طعامهم وشرابهم ، وتخفف الدم النق من جسومهم فلا يشعرون بالحاجة الى معصية الله . . .

ولم يكد يضع عبد الباسط رحله ، ويؤدى الصلاة المكتوبة ، ويستفسر من زملائه الذين سبقوه عن مواعيد الدراسة وعن كراء البيت حتى ذكر خطاب سيد والده الغنى ، فأخرجه من جيبه بوقار وخشوع وراح يسأل عن هذا العنوان :

— جاردن .. جا .. جار .. دن .. جاردن ستى .. أى عنوان هذا ؟ . . محمد بك الخربوطلى بجاردن ستى !

وتضاحك زملاؤه الخمسة من جهل صاحبهم بأحياء القاهرة وهم الذين يعرفونها حياً حياً . . وراودت النكتة اللفظية أحدهم عن نفسه فأطلقها :

— ستى والا ستك . . ها ها !

وضحك الجميع حتى الشيخ عبد الباسط عن طيب خاطر . .

* * *

يعيش محمد بك الخربوطلى فى منزل يضم فتياته الثلاث (صفية وحكمت وآمال) وكلهن جاوزن سن الزواج . ولما كان الأب فاجراً متهتكا فقد نسج فتياته على منواله ، لذلك وجدت كل واحدة منهن أصدقاء كثيرين ولكنها لم تجد زوجاً إلى اليوم

وكان محمد بك رجلاً فى حدود الخمسين ؛ وقد توفيت زوجته فى حادث مؤلم ، فراح ينسى الدنس الذى علق بشرفه بالافراط فى كل ما يستثير شهواته الخسيسة ، ولم يكن فى برنامجه أن يحتفل بتربية بناته بل تركهن فى أيدى الظروف

فى يوم من أيام الربيع الصافية ، وقف الشيخ عبد الباسط ومعه زملاؤه الخمسة الذين تطوعوا بتعريفه منزل السيد ، يصفق بيديه على باب المنزل ، ويمسح العرق المتصبب من جبينه بطرف جبته الخضراء ، على حين جلس زملاؤه فوق المقعد الخشبى الذى يجلس فوقه حارس الباب وهم يلهثون

وجاء البستانى العجوز وهو يمضغ الشتائم والاهانات من فمه ، فقد أزعجه هذا الذى يصفق دون أن يسكت ، ثم سأله :

— ماذا تريد ؟

قالها بلهجة حاكم متغطرس لخادم عنده . ولم يكن الشيخ عبد الباسط يتوقع هذه الخشونة ، أمام زملائه على الأقل ، فأخفى خجله فى سعاله وسلم إلى البستانى خطاب والده إلى سعادة البك ..

وعاد البستانى يقول له باللهجة الأولى :

— أدخل . . .

ثم ضرب البستانى الباب الحديدى وراءه بعنف وغضب . فدخل الشيخ عبد الباسط وقلبه يتراكض بين جنبيه ؛ ثم اقتيد الى حجرة بهره فيها أثاثها الفخم مما لم ير مثله إلا فى الحوانيت التى قاده للفرجة عليها زملاؤه . فأدرك لفوره فى أى طريق ينفق سيد القرية أمواله . .

وشهد فى الحجرة وسادة ملقاة على الأرض فرام الجلوس فوقها ، بيد أن الخادم الطيب أنهضه ليجلس على مقعد مريح . وهنا ابتسم الشيخ عبد الباسط على رغم أنفه . . ابتسم لأنه لم يكن يقدر على البكاء ...

* * *

وبينما هو يجول ببصره فيما أثبت على الجدار من صور وما حشد فى الحجرة من نفائس ، إذا بصوت ناعم يصل إلى أذنيه ، وإذا بفتاة هيفاء تدخل إلى الحجرة وهى تغنى ، فلما رأت الشيخ الجالس أمامها تظاهرت بالفزع وصاحت :

— بردون يا ... يا أستاذ ! ثم واصلت الغناء ...

وجاء الخادم يشرح للفتاة من يكون هذا الشيخ ؟ إنه نجل وكيل والدها فى ضيعته ، وقد جاء إلى القاهرة ليطلب العلم فأرسله أبوه إلى سيده ليشمله برعايته ...

وتلطفت الفتاة وصوبت بصرها إلى هذا المخلوق ، فاذا هو شاب ممتلىء الجسم فى لحية قصيرة كأنما صنعها بيديه . أما ذلك المخلوق فلم يكن يدرى أحد ماذا يعتلج فى ذهنه من الخواطر ، وقد غمره الموقف الشاذ بفيض من البلاهة ، ففغر فمه وبقى فى صمته الجليل ، وقد غض الطرف وذكر نصيحة والده له فلم يخالس الفتاة النظر سوى مرتين

وجاء السيد فى جلباب حريرى أزرق ، فنهض الشيخ عبد الباسط وقبل يده ثلاث مرات كما يصنع مع شيخه فى الدرس ، ثم وقف صامتاً وقد أنساه الشيطان الكلمات الفخمة التى زورها ليلقى بها فى هذا المقام

وقال السيد وهو يعبث بلفافة تبغ فى أصابعه :

— كيف والدك ؟ . . . هل بعث معك مالاً ؟ . . كيف أنت ؟ . . اجلس . . هل تدخن ؟ ...

وماتت الاجابة على هذه الأسئلة كلها فوق شفتى الشيخ عبد الباسط فلم ينطق وإن كان قد جلس على حافة المقعد ورقبته ممتدة ويده العابثة بلحيته ترتعش

وجاءت القهوة ، فشرب نصف ما فى الفنجانة ، وضمخ بالنصف الآخر ثيابه من الدهشة والخوف . ومرت به الفتاة التى رآها حينذاك وهى تغنى ، فربكه مرآها واختل توازنه فوق حافة المقعد وهوى على الأرض ؛ ومن ثم ضحك السيد والفتاة والخادم الواقف بقرب الباب ... وضحك الشيخ عبد الباسط أيضا !

* * *

وكثر تردد الشيخ عبد الباسط على منزل السيد ، وفى المرات الأولى كان ظله ثقيلاً على نفوس أهل المنزل ؛ فلما كشف عن سذاجته وألح فى الزيارة استطابوا وجوده . وكان فى كل يوم يكشف عن أسماء النفائس التى يراها فى المنزل فيحفظها كما يحفظ ألفية ابن مالك ؛ ولم يكن يبالى السخرية به والتهكم عليه ، فان العبد وما ملكت يده لسيده ؛ وكان يؤثر على الجميع الفتاة التى تغنى ، وكانت هى من جانبها تزيد فى الاساءة اليه فيحسب أن يده تقبض على قلبها

ولم يعد الشيخ عبد الباسط يحتفل بدروسه ، لا ولا بصلواته . أما زملاؤه فقد أنكروا عليه هذا الاهمال ، وتوعدوه بالخزى فى الدنيا والآخرة . غير أنه كان يتمثل فى وجوههم شقوة البؤس ، فلم يعبأ حتى بأن يدفع نصائحهم عنه بطرف أصبعه

وانقلب الشيخ عبد الباسط فجأة الى متظرف يطالع الصحف ويغشى المقاهى ويتهكم بشيوخه الأعلام ، حتى زجاجة العطر التى لمحها فى أحد الحوانيت ظل يقتصد ثمنها واشتراها ، والساعة والمنديل الحريرى والحذاء اللامع . . كان ذلك كله فى سبيل أن يحوز رضاء تلك الفتاة اللعوب التى لا تعرف من الدنيا سوى الغناء

وكان الشيخ عبد الباسط يرى فى منزل السيد كل مرة أصنافا من الشبان يفدون على الدار فى أزياء خليعة ، حاسرى

الرؤوس حليق اللحى والشوارب ، وكان يسأل الخدم عنهم واحداً فواحداً ، ويعرف أنهم أصدقاء الأسرة فيسكت ، ويكلفه سكوته هذا لعنة أولئك الشبان فى سره وذلك أضعف الإيمان

ولم يكن الشيخ عبد الباسط يجترىء على التفكير فى هذه الدنيا العجيبة التي يضمها منزل السيد ، وإن كان قد فكر مراراً فى أنه أصبح مطلوبا ومرغوبا فيه

ألم يقل له محمد بك ذات يوم :

— حصلت البركة ياأستاذ !

كلمة لا يقولها السيد إلا لمن يحبه ويوده . ألم تصارحه الفتاة التى تغنى ذات مساء بأن دمه خفيف . ثم ضربته بيدها على وجهه ، وضرب الحبيب مثل أكل الزبيب !

ترى هل حان الوقت الذى يصارحهم فيه بما تضطرم به نفسه من رغبات !

* * *

وجاء ذلك الوقت فلم يفاجىء الشيخ عبد الباسط برغبته رب الأسرة ، لأنه كان رغم كل شيء يتهيب ويخجل . وكانت رغبته أن يتزوج بتلك الفتاة التى تغنى دائما والتى لم يعرف اسمها بعد . وكثيرا ما تمثل هذا البدن الناعم البديع واستعاد ذكريات امسه السعيد ، فيسمعه زملاؤه فى الغرفة يئن ويصرخ من هول ما يعتمل فى صدره . . .

لم يقدر الفوارق الهائلة بينه وبينها ، ولا راعى مركزه كطالب علم فقير ، ولكنه أقنع نفسه بأن كل شيء يسوى بنفسه ، والمصادفات قد تكون فى بعض الأحايين سبباً فى أن يرتفع المرء من الغرفة الحقيرة الى القصر المنيف

وبعد تفكير طويل أودع الشيخ عبد الباسط سره الخطير لدى أحد الخدم فى المنزل ، فتضاحك الخادم وسكت ، وكان فى سكوته ما حمل الشيخ عبد الباسط على أن يتأول ويستولد عدم استحالة الوصول إلى مبتغاه

والظاهر أن الخادم أفضى إلى الفتيات بما قال الشيخ ، ولا ريب أنهن تضاحكن وعبثن بالفتاة التى وقع عليها اختياره ، ثم انقلب الموضوع إلى فكرة ضخمة . لذلك استقبل الشيخ عبد الباسط فى اليوم التالى استقبالاً فخما ، وكأنما كان يتوقع ذلك فراح يفرض وجوده فى المجلس ويصدر خده للجالسين والجالسات . . .

واقترب يوم الزواج ولم يكلف الشيخ عبد الباسط أن يدفع شيئاً وزاد أهل المنزل فى الحفاوة به والترحيب فكان الذى يشغله أنه يتزوج ووالده لا يعلم ، ولكن ماذا يهم والفتاة جميلة ووالدها سيد القرية . .

وفى اليوم الموعود كان رب المنزل غائباً ، ومن الانصاف أن نقول إنه لا يعرف من هذا الموضوع شيئاً ؛ غير أن الشيخ عبد الباسط لم يكن يهمه ذلك ، فقد آمن بأن الرجل يعلم دون شك ولم يفاتحه فى الأمر حتى لا يسيء الى ذات نفسه ويخجله

وأثيرت الدار وأقبل المدعوون ، ولم يجرؤ الشيخ عبد الباسط على دعوة زملائه حتى لا يفسدوا عليه خياله ، واكتفى بأن زاد فى الأناقة وفى التجمل ، وراح يحفظ قصائد الغزل كلها ليسكب بها فى أذن عروسه الحسناء . .

وتم عقد الزواج على يد مأذون حليق اللحية والشارب وإن كان يرتدى جبة وعمامة ، وكان هناك مغن يترنم بصوته والمدعوون من كل صنف يقصفون ويلهون . .

واقترح أحدهم على الشيخ عبد الباسط أن يشرب قدحاً قدمه اليه فلم يستسغ طعمه ، ثم أعطاه قدحاً آخر وقدحاً ثالثاً . . والجمع الصاخب يطلق الضحكات المخمورة من عقالها وهو ذاهل لا يعرف رأسه من قدميه . .

وأفردت له ولعروسه حجرة خاصة فى المنزل الفخم ، ولما أحس دوارا فى رأسه انكفأ إلى حجرته وهبط إلى الفراش لا يقوى على النظر ثم أدركه النوم العميق . .

وفى الصباح وجد إلى جانبه عروسا من الخشب . . والجمع الحاشد يغمر حجرة نومه بالضحك ، ثم تكشفت له الحيلة شيئاً فشيئاً حتى عرف كل شيء . . .

عرف أن المأذون شاب من أصدقاء أهل الدار استعار جبته وعمامته من فقيه المنزل ، وعرف أنه شرب فى الأقداح الثلاثة خمرا حرمها الله ؛ وأخيراً عرف أن عروسه من الخشب وليس لها طاقة على الغناء !

محمد على غريب